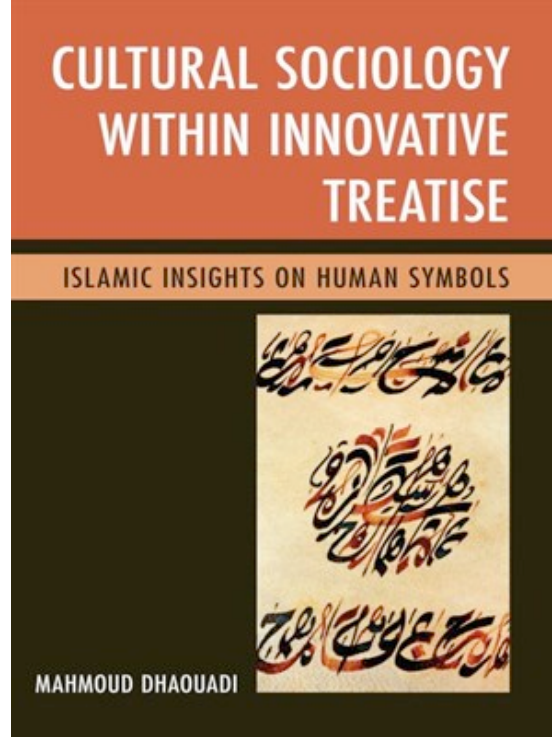


مراجعة كتاب

علم الاجتماع الثقافي في أطروحة مبتكرة: رؤى إسلامية في الرموز الإنسانية

Cultural Sociology Within Innovative Treatise: Islamic Insights on Human Symbols



تأليف: أ.د. محمود الذواودي

صادر عن: يونيفرسيتي برس اوف اميركا (University Press of America) 2013

لغة الكتاب: الانكليزية

عدد الصفحات: 172 صفحة

مراجعة: حميد الهاشمي¹

¹ د. حميد الهاشمي، باحث في علم الاجتماع بالمركز الوطني للبحث الاجتماعي بلندن (NatCen: Social Research)، أستاذ علم الاجتماع – الجامعة العالمية-لندن، أستاذ زائر بجامعة القادسية-العراق. hashimi98@yahoo.com

مستهل:

عُرف عن عالم الاجتماع التونسي الأستاذ د. محمود الذوايدي اشتغاله على موضوعة الرموز الثقافية، وبرز في نظريته (الرموز الثقافية ودورها في إطالة عُمر الجنس البشري).⁽²⁾ وقد دأب الدكتور الذوايدي على تعمّقه، وتطوير بحثه في هذا المجال. فحاء كتابه الحالي (علم الاجتماع الثقافي في أطروحة مُبتكرة: رؤى اسلامية للرموز الانسانية Cultural Sociology Within Innovative Treatise: Islamic Insights on Human Symbols) باللغة الانكليزية كأحدث إنتاج فكري له، وهو لا شك يعكس الخبرة والنضج الذين بلغهما في هذه المجال. وقد سبق وأصدر كتاباً بالعربية في نفس السياق عنوانه (المقدمة في علم الاجتماع الثقافي برؤية عربية إسلامية)⁽³⁾ ولعله النسخة العربية منه ماحلا بعض الإضافات التي استحدثها الذوايدي في مباحث اضافية، مثل تلك التي تتعلق بالثورة التونسية وثورات الربيع العربي، ومناقشة أطروحة صاموئيل هنتنغتون (صراع الحضارات).

بينما كان الذوايدي ينهي تأليف كتابه هذا Cultural Sociology Within Innovative Treatise: Islamic Insights on Human Symbols) في ربيع عام 2012، كانت بعض الأقطار العربية ومنها تونس التي ضَمَّنَ كتابه عدداً من المباحث ودراسات الحالة حولها، كانت تُمرُّ بِجِراكِ ثوريِّ شبابيِّ قَلْبَ موازين المنطقة وقرع جرس الإنذار من أجل إعادة قراءة المنطقة ليس من الناحية السياسية فقط، إنما الثقافية والاجتماعية أيضاً. لقد أهدى المؤلف كتابه (إلى ثوار الربيع العربي)، ولم يَطْلُعْ بعد على التحولات الدراماتيكية اللاحقة التي قلبت بعض تلك الثورات إلى ثورات مُضادة ضد شعوب المنطقة أنفسها من خلال انهيار الأمن والإقتتال الداخلي الذي أنتج تردي الأحوال الإقتصادية والمعيشية عامة، وقوَّضَ الحُرِّيَّات العامة والفردية وزادَ في انتهاكات حقوق الإنسان نتيجة صعود الإسلام المتطرف خصوصاً إلى الواجهة.

ملاحظة عرضية:

يشهد هذا الكتاب تحولاً في استخدام الذوايدي لإطروحته التي اشتغل عليها سنيّاً، يتمثل في تغيير التسمية من (الرموز الثقافية Cultural Symbols) إلى (الرموز الإنسانية Human Symbols). ويؤكد المؤلف أن الرموز الإنسانية تشير إلى اللغة المحكية والمكتوبة والفكر والمعرفة والعلوم والأديان والأساطير والقوانين والقيم والمعايير الإنسانية. (ص15)، وهو تعريف لا يختلف عن مقصده بالرموز الثقافية في المراحل السابقة من أطروحته التي قدمها بعنوان (الرموز الثقافية).

² الذوايدي، محمود، الرموز الثقافية وطول أمد الجنس البشري: رؤية ثقافية إسلامية، مجلة البحرين الثقافية، العدد 32، أبريل 2002، ص.116-139.

³ صدر عن المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، 2010.

ما الصلة بين أطروحة الذوادي وكتاب (لماذا ينفرد الإنسان بالثقافة) لمايكل كاريذر؟:

كتاب (لماذا ينفرد الإنسان بالثقافة؟ Why Humans Have Culture?) لمؤلفه (مايكل كاريذر Michael Carrithers)⁽⁴⁾، لمن اطلع على عنواني الكتابين على الأقل يمكن أن يلفت نظره الشبه أو التقارب من حيث المبدأ. ولهذا وجدنا من المهم أن نتطرق إلى هذا الكتاب، كي نجيب على التساؤل الذي قد يطرح هنا. فمن بين الأهداف التي وضعها مؤلف ذلك الكتاب (لماذا ينفرد الإنسان بالثقافة)، هو: "دراسة التنوع الثقافي البشري، ليكون بمثابة دعوة موجهة إلى (زملائي) في ميدان البحث الانثروبولوجي ومجالات البحوث الأخرى ذات الصلة". (كاريذر، ص17) وعلى لسانه أيضاً: "اتخذت منطلقاً إليه بالسؤال التالي: لماذا تنوعت ثقافات وسبل حياة البشر؟ وَيَنْصَبُ سُؤالي هذا على أُسس التنوع في حقيقته". (كاريذر، ص17)

فكرة الكتاب تقوم على أن الثقافة بعناصرها ما هي إلّا آلية ابتكرها الإنسان والمجتمع لمواجهة الحياة. (كاريذر، ص12) كما ويركز الكتاب على وحدة الثقافة الإنسانية. (كاريذر، ص13). وإنّ الثقافة هي نتاج روح المعاشرة الاجتماعية. ويرى أن ليس ثمة نوع آخر غير البشر تكشف أشكال حياته المشتركة عن مثل هذا التّعقّد وتلك الخصوبة. ويبدو الأمر كأننا بصفتنا بشراً احتجنا على مدى تاريخنا الجمعي المديد، إلى أن نُغيّر المجتمع دائماً، مثلما كُنّا بحاجة إلى أن نجعل استعداداتنا المشتركة، أكثر فأكثر تشابكاً وثراءً وتنوعاً. ويستشهد كاريذر بفكرة روث بندكت (القوس الأعظم Great Arc)، حيث يقول: ولقد ابتكرنا ما أسمته بندكت القوس الأعظم، لمُختلف وسائل العمل والكلام وتسيير حياتنا الحلية، والهيمنة على بعضنا البعض وتوجيه حياتنا المشتركة والإنشغال بمقائيق غير مرئية. (كاريذر، ص20).

لعل الذوادي بتبديله لمصطلح (الرموز الثقافية) إلى (الرموز الإنسانية) أراد الهرب هنا من هذا التشابه في أو التقارب بين عنوان هذا كاريذر (لماذا ينفرد الإنسان بالثقافة؟)، وعنوان أطروحتة الرئيسية التي اشتغل عليها سنوات ومحورها (الرموز البشرية ودورها في إطالة عمر الجنس البشري). كما لا يمكننا الجزم أنه قد اطلع على هذا الكتاب، ولعله استفادة من السؤال الذي طرحه (كاريذر) الحاث على التفكير والاشتغال بالموضوع. حيث لا توجد دلائل على تطابق أو تشابه في الفكرة الخورية الرئيسية.

ما الذي يقدمه الذوادي؟:

يتضمن الكتاب بالإضافة إلى المقدمة، ثلاثة أبواب رئيسية بثمانية فصول، مقسمة كل منها إلى عددٍ من المباحث. فالباب الأول جاء تحت عنوان (تقصّي مفاهيمي جديد لعلم الاجتماع الثقافي)، وتضمن الفصول الأربعة الأولى. حيث عنون الفصل الأول بـ (البحث عن علم الاجتماع الثقافي)، وقد تناول المؤلف فيه اشكالية تأخر ظهور علم الاجتماع الثقافي والتداول في الاستخدام بين مصطلحي (علم اجتماع الثقافة) و(علم الاجتماع الثقافي).

⁴ صدر عن المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، 2010.

يُعرّف علم الاجتماع الثقافي بأنه (صناعة المعنى)، حيث يتقصى علماء اجتماع الثقافة صناعة المعنى. (ص3)

يرى الذواوي الحاجة ملحة لعلم الاجتماع الثقافي. يخلص إلى أنه لا يكفي المتخصصين بعلم الاجتماع الثقافي أن يعطوا اهتمامهم لدراسة الثقافة لينشأ علم اجتماع ثقافي. إن خارطة الطريق لعلم اجتماع ثقافي رصين يمكن أن تتحقق إذا اتبعوا هاتين الخطوتين:

1. إن ينظروا إلى الثقافة كمتغير مستقل ومركزي في الهوية الإنسانية.

2. أن يغوصوا عميقا في عناصر الثقافة ولا يكتفوا بالظاهر، وإلى معرفة عميقة بالجوانب المعرفية من الرموز الإنسانية.

والفصل الثاني (مفاهيم ثقافية جديدة لعلم الاجتماع الثقافي)، وقد ناقش فيه مفهوم (التخلف الآخر لشعوب البلدان النامية)، حيث سبق وابتدأ الذواوي اشتغالاته على هذا الموضوع منذ نشر مقالته الأولى (الذواوي، 1983). وقد تناول فيه إشكالية تمهيش اللغة الأم (العربية) في بلدان المغرب العربي (خصوصا تونس والجزائر والمغرب)، واستخدام اللغة الفرنسية أو مفردات كثيرة منها في اللغة الدارجة، وذلك نتيجة التأثير بالاستعمار الفرنسي خلال الحقب السابقة (1881-1956). كما تضمن الفصل مبحثا حول الأبعاد النفسية والاجتماعية لاستخدام ازدواجية اللغوية (فرانكو-أراب) لدى النساء التونسيات على سبيل المثال، وكيف بينت له معطيات أحد أبحاثه الميدانية اتساعها على نطاق أكبر. وتضمن الفصل الثاني كذلك الأبعاد النفسية والاجتماعية (للدعاء) الذي تمارسه النساء خاصة ضد الغير في حالة حصول نزاع أو زعل من شخص. كما تضمن الفصل أيضا الترتيب الطبقي للفاعلين الثلاثة (المستعمر، الرجال التونسيين، والنساء التونسيات)، التي شكلت في ذلك الوقت طبقات المجتمع التونسي.

بينما حمل الفصل الثالث عنوان (العلوم الاجتماعية تحتاج إلى إطار نظري من الرموز الثقافية)، وقد جادل فيه على حاجة العلوم الاجتماعية إلى (الرموز الثقافية) كإطار نظري (براديجم).

كما ناقش معاني (الرموز البشرية المتعالية) وأبعادها الثلاثة. واللغة وأبعادها بالنسبة لفلسفة التعالي، وأبعاد الحرية والعدالة والديموقراطية لفلسفة التعالي.

حاول الذواوي أن يدرس ثلاث ظواهر كدراسة حالات ونماذج واقعية للرموز الثقافية، وهي:

1. العالم العربي كمحصلة للرموز الثقافية. 2. والثنائية الكندية للعزلتين، في إشارة إلى حالة مقاطعة كيبك الكندية التي يعيش مجتمعا الإزدواجية اللغوية والثقافية باعتبار ثنائية اللغتين الفرنسية والانكليزية هناك. 3. خطورة الاعتماد الثقافي. وفي الجزء الأخير من الفصل الثالث بحث المؤلف في (الحاجة إلى علم اجتماع للرموز الثقافية).

أمّا الفصل الرابع فجاء تحت عنوان (نظرية الرموز الإنسانية وقواعد الأنماط السلوكية الجمعية وسلطانها على سلوك المجتمع). وفيه: (المجتمع والثقافة باعتبارها معانٍ للفهم والاكتشاف)، و(الجمعية الاجتماعية في علم الاجتماع)، و(فرضية الثقافة باعتبارها قوة ديناميكية للنفوذ والسلوك)، و(تميش الثقافة في التنظير الاجتماعي المتعلق بالفرد أو المجتمع)، و(النفوذ الاجتماعي التام)، و(قواعد السلوك الجمعي الجزئي)، و(نظرية الاختيار الراشد)، و(مبادئ نظرية الاختيار الراشد)، و(سؤال نظرية الاختيار الراشد)، و(نظرية الاختيار الراشد والسلوك الجمعي)، وأخيراً في هذا الفصل يتقصى الدواوي (الجذور الثقافية للسلوك الجمعي).

الباب الثاني وَسمَهُ بـ(الرموز الإنسانية في المنظور الإسلامي)، وتضمن هذا الباب الفصلين الخامس والسادس. فالفصل الخامس عنوانه (المظهر الثقافي من وجهة نظر إسلامية مختلفة)، وفيه (فك إلتباس مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية)، و(مفهوم الثقافة من وجهة النظر المعرفية الإسلامية)، و(النظرة التأسيسية المعرفية القرآنية للثقافة)، و(اللغة وسماتها الميتافيزيقية)، و(الرموز الإنسانية التي تصبغ الجنس البشري بالطاقة العظيمة)، و(نحو علم اجتماع ميتافيزيقا الرموز الإنسانية)، و(انسجام رؤيتي مع علم الاجتماع الانعكاسي).

على أن الفصل السادس اختص بـ(نظرية {العقل-النقل} في الرموز الإنسانية وقيام علم الاجتماع الثقافي)، وفيه من الباحث: (النظرية وغرضها)، و(نظرية العقل-النقل في الرموز الإنسانية وعلم الاجتماع الثقافي)، و(الضياغ داخل طبيعة الثقافة)، و(ماهي النظرية؟)، و(الملاحظات الأساسية وعمل نظرية العقل-النقل في الرموز الإنسانية)، و(التفسير المحتمل لنظريتي)، و(علم الاجتماع الثقافي كتخصص محوري).

بينما يقوم الباب الثالث على (ثلاث دراسات حالة ضمن رؤية الرموز الإنسانية)، وفيه يتقصى الفصل السابع (دور الرموز الإنسانية في إطالة عُمر الجنس البشري)، والذي تضمن مقدمة، وعدد من الباحث هي: (الرموز الإنسانية واستخداماتها الفاعلة في العلوم)، و(النوع البشري أطول عمراً)، و(رؤية النشوء الحيوي في عمر الإنسان)، و(الحاجة إلى مقارنة تفكير مركبة)، و(سرعة نمو ورشد الرموز الإنسانية)، و(اختلاف السنوات بين النمو العضلي واللغوي للأطفال)، و(الدماغ البشري وطول عمر الإنسان)، و(الجمعية الثقافية والعمر البشري)، و(البيولوجيا والجينات والرموز الإنسانية)، و(العلوم الاجتماعية الحديثة والتفوق المفقود)، و(العلوم الاجتماعية غير مؤهلة لدراسة الرموز الإنسانية)، و(الطبيعة البشرية في القرآن)، و(صورة الإنسان في القرآن)، و(كينونة الثنائية البشرية).

بالفصل الثامن الذي عنوانه بـ(جهل العلوم الاجتماعية بالمجتمعات النامية في مرحلة ما بعد الإستعمار). وقد ضمنه: (الجهل الواسع بالتخلف الآخر)، و(طبيعة الثنائية القطبية لتخلف الآخر)، و(التخلف اللغوي الثقافي)، و(التخلف النفسي في العالم الثالث)، و(تخلف الآخر كنسق ثقافي- نفسي)، و(صمت العلوم الاجتماعية الغربية الحديثة حول التخلف الآخر).

في حين يُختتم الباب والكتاب بالفصل التاسع الذي يكرسه لمناقشة موضوعات وأطروحات شاعت في العقود الأخيرة في العالم. ويعقد فيه الدواوي مناقشة لأطروحة صاموئيل هنتنغتن الموسومة (صراع الحضارات Clash of Civilization)،

حيث يرى أن حوار الحضارات هو الخيار البديل عوضاً عن الصراع. وهنا يعود إلى تسليط الضوء على فكرة الرموز الإنسانية وتنظيراته فيها، فيطرحها باعتبارها رؤية نظرية، وأن الرموز الإنسانية تعكس هوية مشتركة للإنسانية جمعاء (ص156)، مستخدماً الرموز الإنسانية باعتبارها لغة خطاب وسطى، ورابط وثيق بين بني البشر، وعامل موحد لا مفرق. كما يناقش (صراع السياسات والتوترات بين العالم الغربي والإسلام). حيث يرى أن تلك التوترات إنما ناجمة عن صراع سياسي، مستشهداً بذلك بصامويل هنتنغتون نفسه. (ص162). وبالتالي فإن إمكانية الحوار بين (شرق إسلامي وغرب مسيحي) مثلاً، قائمة وممكنة.

الخاتمة:

ختاماً، يمكننا أن نخلص إلى أن هذا الكتاب، هو من نوع الجهد التنظيري في مجال علم الاجتماع والعلوم الإنسانية من ناحية، ومن ناحية أخرى هو محاولة تأصيلية لطرح براديجم (عربي-إسلامي) معزٍ ومستند إلى رؤية قرآنية، ويُصنّفُ العمل ضمن الجهود الوضعية (positivism)، في مجالات العلوم الاجتماعية.

فضلاً عن ذلك، يعتبر الكتاب إضافة طيبة للمكتبة العالمية عامة، ولعلم الاجتماع الثقافي خاصة، وكذا فهو نافذة مهمة على الثقافتين الإسلامية والعربية بمقاربة سوسيولوجية طيبة. لقد حاول المؤلف جمع مُجمل ما اشتغله بهذا الخصوص، وما من شأنه أن يُصنّف تحت هذه المقاربة والمنظور ليقدم نفسه من خلال هذا الكتاب، بعد أن قدم نفسه في مناسبات سابقة من خلال عدد من البحوث والمؤتمرات العلمية باللغتين الانكليزية والفرنسية.